رعي الإبل وسقياها

رعي الإبل

تعيش الإبل في المناطق الصحراوية، وهي بيئات فقيرة من حيث الغذاء والماء، وذات ظروف مناخية صعبة كارتفاع الحرارة والجفاف الملازم لها. والبعير بطبيعته يفضل رعي الأشجار والشجيرات، ولكنه يُقبل على رعي النباتات العشبية أيضاً، خاصة الطويلة منها. وهو واسع الاختيار في الرعي، أي أنه يرعى عدداً كبيراً من نباتات المراعي الطبيعية. ومن عادته في الرعي أيضاً صِغرُ حجم القضمة الواحدة من النبات، مع عدم التركيز في الرعي على منطقة صغيرة، مما يساعد في المحافظة على المراعي من التدهور نتيجة الرعي الجائر الذي تتصف به بعض أنواع الماشية. ويحتاج البعير في المرعى لفترة ما بين ٦-٨ ساعات يومياً لكي يؤمن الغذاء اللازم لجسمه. وتحتاج مدة الرعي هذه إلى حوالي ست ساعات للاجترار. ويستطيع البعير الرعي طوال النهار، لكنّ رعاة الإبل يفضلون أن يرعى في الصباح وقبل الغروب؛ لإعطائه فرصة للراحة والاجترار في وسط النهار حيث تشتد الحرارة. أما الجمل الذي يعمل في الحقل أو في السّني فعمله غالباً ما يكون في الصباح أو قبل الغروب؛ لذلك يُترك للراحة والرعي في وسط النهار. ويجب أن يُعطى البعير الذي يعمل أطول مدة ممكنة للراحة بين فترات العمل. كما يجب تقديم الأغذية الإضافية له في المساء. وقد لوحظ أن الإبل تتناول أغذيتها ببطء أكثر من الأغنام. وعندما تتغذى بعلائق خشنة من مخلوط التبن مع الدريس، فإنها تتناول الاثنين معاً، من دون تفرقة بينهما، في حين تبحث الأغنام عن قطع الدريس وتتناوله أولاً حتى إذا نفدت تبدأ بتناول التبن ثانياً.

قضمة البعير صغيرة الحجم

رعي النباتات الشوكية

ومن المعروف علمياً أن التبن علف مالح يستثير غدد الجهاز الـهضمي على إفراز الأنزيمات الهاضمة عند كل الحيوانات. ويقدم مربو الإبل العلف لها على شكل كُتل (درابـي) وهي كرات صغـيرة من الغذاء الذي هو مـزيج من التبن وكسر القمح والشعير والكرسنة مع الماء بمعدل ١٠-١٥ كجم من الـتبن و٢ كجم من الحبوب.

ومن مـيزات الإبل أنـها تسـتطيع التغذي بالـنباتات الشوكية وغـيرها من النبـاتات الأخرى التي لا تـأكلها بقـية الحيوانات. أمَّا أفضل ما تحبه الإبل من مرعى في فصل الربيع فهو العشب، أي النباتات الفصلية؛ مثل الحوذان والسعدان والقرنوه والقفعاء والنفل والربلة وغيرها من النباتات الفصلية. وهي لا تكثر من أكل القلقلان والخزامى والصفار والغريرا والسمنة؛ لأنها تعتبر من حرار العشب وما عداها فهـو من الحلاوي. وأما في فصل الـصيف فالإبـل تكثر مـن رعي النصي والسـعدان وما لان من نباتاته. وفي منطقة الـربع الخالي فإن الإبل في فصل الصـيف تفضل الزهـر والعندب

رعي النباتات العشبية

(الثداء). وأما في نجد فيكثر النصي في الصيف وهو نبات مفضل للإبل. وفي الشمال ترعى ما يسمى الحميس وهو ما بقي في الأرض من نباتات الربيع.

وأما النباتات الحمضية التي تأكلها الإبل في كل الأوقات فأفضلها لها الروثة ثم الرغل والعراد والسواد، وفي منطقة الربع الخالي لا يتوافر لها سوى نوع واحد هو الحاذ.

أمَّا ما تسميه البادية بالقشع أو الشمع وهو الشجيرات، فإنه أفضل ما ترعاه الإبل من نباتات في المناطق الصلبة أو الجبال، وهو العرفج والثمام؛ بينما تفضل في المناطق الرملية الزهر في الربع الخالي وكذلك العندب والسبط والحماط والبركان. وأما النباتات التي ليست بعشب أو شمع، بل هي بين ذلك، فإن أحبها للإبل الرمرام والنقد والرقروق والشكاعى، وتسميه العرب الجنبة.

وقد ذكر الصانع أن البعير في المملكة العربية السعودية والعراق والكويت يتغذى بنبات الرمث والرعل والنصي والشيح ونباتات أخرى. وتفضل الإبل دائما رعي الأشجار والشجيرات، وترك النباتات العشبية الصغيرة، وهي على عكس ذلك

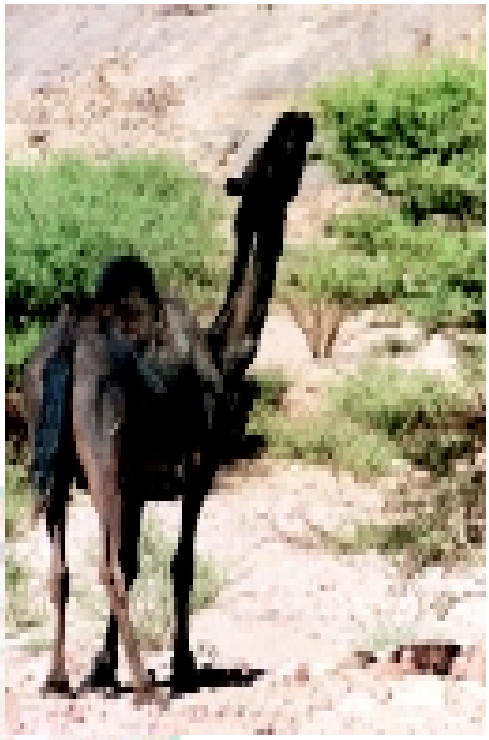

رعي الأشجار

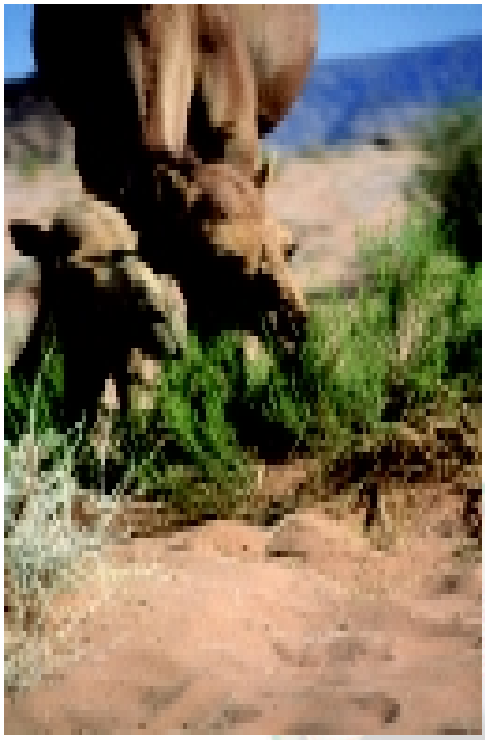

رعي الشجيرات

إذا كان المرعى جيدا، فإنها ترعى الأعشاب الصغيرة الخضراء.

وتهدف تغذية الإبل إلى تحقيق أمرين؛ الأول حفظ حياة الإبل وصحتها، والثاني إمدادها بالمركبات الغذائية للنمو والحركة ولإنتاج اللبن واللحم. وهذه المركبات هي: المركبات البروتينية، والمركبات الكربوهيدراتية، والمركبات الدهنية، والمركبات المعدنية، والمركبات الواقية أو الفيتامينات.

ويستطيع بعير واحد أن يأكل خلال رعيه ما مقداره ٢٥ إلى ٣٥ كجم من النباتات في اليوم الواحد. أما أقل احتياج يومي للإبل من النبات فهو ٥ كجم، ويتطلب ذلك أن تقضي الإبل حوالي ٨-١٠ ساعات في المرعى، لأنها بطيئة في الأكل والاجترار والتنقل من مكان لآخر. وتطول مدة الرعي إذا كان المرعى جافاً أو محتوياً على نباتات شوكية.

وينقل الصانع أن إحدى النوق في أثيوبيا أعطيت ما مقداره ٢,٥٠ كجم من نبات الحلفا، وكان وزنها ٣٦٠ كجم فأكلته، من دون أن يظهر عليها أي نوع من الانتفاخ أو التلبك المعوي أو المعدي.

وذكر أن مجموعة من النوق في أثيوبيا غذيت بنبت الثمام، وكان قد تخطى فترة إزهاره وأصبح جافاً نسبياً، فسجلت هذه النوق إنتاجاً زائداً من اللبن.

كما ذكر الصانع أن أفضل النباتات التي تقبل عليها الإبل في جميع الدول العربية هي نبات الثمام ونبات النصي ويرجع ذلك لسعة انتشارهما. أما في الجزيرة العربية فإن الإبل تقبل على رعي نبات النصي والرمث. أما الإبل المخصصة للعمل فهي تتناول دائماً الأعلاف الخضراء والحبوب العلفية والنخالة وكسب القطن، والتبن والقير والدريس والبرسيم. وتحصل الإبل من نباتات المرعى على ٣-٣٠ لتر ماء يومياً، وتتناقص هذه الكمية إذا كانت نباتات المرعى جافة، بخاصة في فصل الصيف (١٩٨٤: ١٤٣-١٤٤).

ويذكر الحتي أن الإبل تقلُّ أوزانها في فصل الشتاء من كانون الأول (ديسمبر) حتى نيسان (إبريل) إذا كانت تعتمد في غذائها على نباتات الرعي فقط. وعلى كلٍ فالأمر يعتمد على نوعية المرعى، فقد تزيد أوزانها أو تنقص حسب نوع المرعى في تلك الفترة، ما لم تكن الإبل من تلك التي تطعم الشعير أو المكعب فإنها لو تركت أكلهما واعتمدت على المرعى وحده خسرت من وزنها، وإن كانت قادرة على استعادته بعد فترة من الزمن. وتقول البادية «نقضت البل» أي خسرت السمنة والشحم الذي كسبته بأكلها الشعير أو المكعب، وبدأت في بناء شحم جديد معتمدة على المرعى. أما إذا حدث العكس أي بنت شحماً من رعيها العشب والشجيرات ثم اعتمدت على الشعير والمكعب فإنها لا تخسر شيئاً من شحمها الأول. وقد لوحظ أن معدل هذه الخسارة بلغ ١٩,٧٪ عند الأمهات و ١٠,١٪ عند الذكور التي فوق عمر أربع سنوات. أما لدى الذكور التي عمرها ثلاث سنوات فقد بلغ متوسط هذه الخسارة ٩,١٪. وتنخفض هذه النسبة كلما كان الجمل صغيراً في السن. أما التي لم تزل ترضع من أمهاتها فلم يتأثر وزنها بسبب اعتمادها على حليب أمهاتها. وتعوض هذه الخسارة في فصلي الربيع والخريف مع زيادة في النمو. وتصل الإبل إلى أقصى أوزانها خلال شهري أيلول (سبتمبر) وتشرين الأول (أكتوبر). لذلك يجب عدم الاكتفاء في التغذية بما ترعاه الإبل في فصل الشتاء، وفي مواسم القحط والجفاف، بل لا بدّ من تقديم الأعلاف المركزة لها (١٩٩٠: ١٤٣-١٤٤).

ويذكر أن الإبل ترعى الأشجار والشجيرات، فارتفاع قوائمها وطول

رقابها يجعلانها قادرةً على الوصول إلى الأجزاء العلوية من الأشجار والشجيرات، كما تقبل الإبل أيضاً على رعي النجيليات والنباتات العريضة الأوراق. ويعتمد اختيار الإبل أو تفضيلها للأنواع النباتية الرعوية وكمية المادة التي تستهلكها منها أساسا، على البيئة التي توجد فيها، وتنوع النباتات وكثافة كل منها ومرحلة نموها، وفصل السنة ودرجة استغلال المرعى، وتوفر ماء الشرب، ويتم ذلك ضمن الدورة الرعوية المتبعة كل عام. ولذلك فإن تركيب العليقة يختلف يومياً من مرعى إلى مرعى، ومن فصل إلى آخر، كما أن القيمة الغذائية لكل عليقة تختلف وفقاً لهذه العوامل، ووفقاً لنسب الأنواع النباتية الداخلة فيها.

ونظرا لاهتمام العربي بالإبل اخترع الكثير من المسميات لأنماط سلوكها ولتصرفاتها ولعلاقته بها ولأساليب تعامله معها، ومن ذلك أشكال الرعي. فقد وضع لكل شكل نعتاً خاصاً؛ ولهذا تعدّدت أوصاف عملية الرعي. يقول العرب: رعت الماشية: إذا سرحت بنفسها وأكلت النبات، ومنه اشتقوا الراعي، والمرعى وهو المكان الذي ترعى فيه الماشية، ورجل تَرْعِية للذي يجيد رِعْية الإبل. وتقول عنه البادية مصلاح. وسامت الماشية: رعت بنفسها حيث شاءت، ويقال لها في البادية هامل وجمعها همل. والسائمة: الإبل تُرسَل لترعى ولا تُعلف. وسرَحت الماشية: رعت بنفسها في الغداة. وفي المثل «ماله سارحة ولا رائحة»، أي ليس له شيء. وسرَبَت الماشية: رعت نهاراً بغير راع. ورتَعَت: رعت كيف شاءت في خصب وسعة، والمَرْتَع: المرعى، كل هذا إذا كان نهاراً. وغديتْ: إذا رعت في أول النهار. وضَحِيتْ: إذا رعت في الضحى. والتَعْشِيَة: رَعْيُ الماشية بالعشي وأول الليل. ويقال: معشّية. وربّعت الإبل: سرحت في المرعى وأكلت كيف شاءت، فسمنت وكثر الشحم في أسنمتها. والاختضار: رعي الخُضرة. وكلأت: أكلت الكَلأ. ونَجعَت المكان: أتته ونزلتْ به وتتبَّعتْ مواضع الكلأ فيه. والنُّجعة: طلب الكلأ ومساقط الغيث والسير إليه. وجَرَزَتْ الإبل الأرض: أكلت نباتها فلم تترك منه شيئاً. وجلحت الإبل الشجر: أكلتْ أعاليه. وسَمُّوا الناقة طَرِفة: إذا كانت تتبع المرعى ولا تثبت على مرعى واحد، وتقول البادية عنها: صلفة أو عجلة أو غير رتّاعة، ويقال هي التي تتبع أطراف المرعى ولا تختلط بالنوق، ومثلها العاندة، والعَسوس،

إبل سارحة

والقَسوس. أما القَدَمة فهي التي تكون أمام الإبل في المرعى وتسميها البادية الطّياحه. وقالوا: الفَرُود للتي تنفرد في المرعى وتسميها البادية الرجوع. والمِدْقاع هي الناقة التي تأكل النبت حتى تلصقه بالدقعاء وهي الأرض لقلّته. أما الخَذول فهي التي تخذل عن أوالفها (وليفاتها)، وتتخلف في المرتع وحدها وتسميها البادية خدوع أو خنوس. والمِرْياع الناقة التي تذهب إلى المرعى وترجع بنفسها، ومثلها المِسياع. كل هذه النعوت والأسماء قديمة فصيحة، حفلت بها الكتب والمعاجم، وما زال الناس يستعملون الكثير منها إلى أيامنا هذه.

وتقول البادية إذا خرجت الإبل صباحاً للمرعى سرحت أو ندرت، وتُسَمي مرعاها من الصباح إلى وقت الظهيرة مضحَّى وهي إبل مضحِّية، وإذا ظلت في المرعى من بعد الظهر إلى العصر فهي إبل مفالي أو مفلِّيه. وأما إن خرجت

إبل مفلّية

بعد العصر وظلت حتى أواسط الليل فهي إبل معشِّية. وإذا تأخرت في مْعَشّاها عن موعدها المعتاد لعودتها قيل عتمت. وإذا بركت في الليل ثم عاودت الرجوع للمرعى مرة أخرى آخر الليل قيل إبل سفير ويقال سفرت الإبل.

أما عودة الإبل من مرعاها فتسمى مهداف ويقال هدفت الإبل، وإبل هادفة وكذلك يقال أنكفت الإبل، وإبل منكفة، إذا كان رجوعها من المرعى بعد غروب الشمس. أما إن كان الرجوع عند العصر أو بعده بقليل فيقال: روحت الإبل، وإبل مروِّحه، وإبل مراويح.

إبل مراويح

ويحرص أصحاب الحيوانات عموماً، والإبل على وجه الخصوص، على حفظها وحمايتها، فالرعاة يخافون من خروج إبلهم ليلاً، فتتلف ممتلكات الغير أو تختلط بإبل مريضة أو يصادفها فحل غير أصيل فيلقحها، وقد تتعرض أيضاً للضياع، لذلك درج الرعاة على عمل حظائر لها، تحفظها مما تقدم وتكون حماية لها من البرد.

والحَظِيْر والحَظِيْرَة ما أحاط بالشيء، وهي تكون من قصب وخشب، قال المرّار بن مُنقذ العَدوِيّ:

فإنّ لنا حظائر ناعمات
عطاء الله ربّ العالمينا

فاستعاره للنخل، والحظار حائطها. وكلّ ما حال بينك وبين شيء فهو حِظار، وحَظَار، وكل شيء حجر بين شيئين فهو حِظار وحِجار. والحِظار أيضاً الحظيرة تعمل للإبل من شجر لتقيها البرد والرّيح. وهي عنّة تقام حول البيت من أغصان الشجر على هيئة دائرة تبيّت فيها الغنم وضعاف الإبل لتدرأ عنها برد الرياح الباردة شتاء. وهي لفظ فصيح. وحظيرة الإبل تكون في الخلاء وتعمل على شكل هلال من جهة الريح لتحتمي بها الإبل من البرد؛ قال شالح بن ماضي العتيبي:

ما هيب من صفر العيون المهبّاه
اللي عليها يسحبون الحظير
راعي الغنم دايم على النار تصلاه
يخاف من ذيب عليها يغير

وقال نمر بن عدوان:

ولا خمخمت مع قبلة الليل ربقها

ولا جات مع السرعه تجر حظير

والعِنَّة في كلام العرب هي الحظيرة من الخشب أو الشّجر تُجعَل للإبل والغنم تُحبس فيها، وقيّد بعضهم استعمالها فقال: لتدرأ بها برد الشمال. في اللسان «العنّة الحظيرة تكون على باب الرجل، فيكون فيها إبله وغنمه». فالعنة والحظيرة واحد، تتخذ من أغصان الشجر، تقام حول البيت، تأوي إليها الغنم ليلاً، وتبيت فيها لتحميها من ريح الشتاء الباردة، وكذلك تكون لضعاف الإبل، وجمعها عُنَن؛ قال الأعشى:

ترى اللحم من ذابل قد ذوى

ورطب يُرَفّع فوق العِنَنْ

وفي المثل «كالمهدِّر في العُنّة» وهو قولهم «يْهَدِر في العنّه». وأصله الفحل الذي يحبس عن الضراب، يضرب مثلاً لمن يهدّد ولا ينفّذ. ومن الأمثال الشعبية قولهم «بَرَك في العنَّه». أي لم يعد يقدر على القيام؛ قال حميدان الشّويْعر:

ياشبه ثليبٍ في عِنّه

لو شاف المرعى ما ثار

إن قمت فلا بد الونه

والمشي كنى بهجار

والثلب: الجمل المسن (الهرش).

ومن أدوات الرعاة اللصيقة بالحظائر المعالف، واحدها مِعْلَف، وهو حوض يوضع فيه علف الحيوانات (الإبل والبقر والحمير) يبنى في أحواشها، بعضه ذو هيئة دائريّة وبعضه مستطيل، وهو فصيح. ومما جاء منه في الشعر الشعبي قول عبد المحسن الصالح:

اكتب واصحى ياخطاط

يصدر بكتابك أغلاط

أكسر قعوك بالملقاط

ثم أدفنك بتبن المعلف

ويستخدم رعاة الإبل أدوات متعددة يحتاجون إليها وتساعدهم في أداء مهامهم؛ بعضها للحلب وبعضها لحفظ الحليب، وبعضها للسقيا، وأخرى لحفظ الطعام (الزاد) يضاف إلى ذلك أدواته الخاصة (الإداوة) التي يحمل فيها ما يلزمه من ثياب ونحوها.

فمن أدوات الحليب الزُّكرة وهي جلد صغير يُحلب به الحليب يكون مع الرعاة وهو خاص لهم، ويقال «زكرة راعي». ومنها السِّعِن وهو وعاء صغير من جلد الضأن أو الماعز لحفظ اللبن، يكون مع أغراض الراعي؛ قالت مغيظة الدليمان:

الى حْلبوها ولموا له بسِعنين

يروون اهلها والقعو والخطارا

ومنها الشكوة وهي القربة الصغيرة، وتصنع من جلد السخلة ما دامت ترضع، ويصفونها بالسّقاء الصغير، وتستعملها النساء لمخض اللبن، وفي طلوع الثريا تقول العرب:

طلع النجم غديه
ابتغى الراعي شكيه

ويستعملها الرعاة وغيرهم. وإذا أرادوا تبريد اللبن وضعوه في المجدل وهو خيوط من وبر الإبل، وله عروة ويتشابك مثل الشبكة إلا أن فتحاته واسعة، وعراه تكون من جهتيه اليمنى واليسرى، يوضع على شجرة، ويوضع فيه سقاء اللبن ليبرد.

ويستخدمون المِحْلَب وجمعه محالب ومحاليب، جاء في اللسان «المِحْلَبُ، بالكسر، والحِلاب: الإناءُ الذي يُحلَب فيه اللبن، قال:

صاح هل رَيْتَ أو سمعتَ بِراع
رَدّ في الضّرع ما قَرَا في الْحِلابِ

وجمعُه المحالِب». فالمِحْلَب هو الإناء الذي يحلب فيه راعي الإبل إبله، ويكون قدحاً مصنوعاً من خشب الطّلح، وقد يكون من خشب الأثل وربّما كان من معدن؛ قال جهز بن شرار:

مع درب شيخ ما يبوق الصحيب
يشكون منه القوم كفي المحاليب

ومن أدواتهم المِشْراب وجمعُه مِشاريب، ويقصد به القدح الذي يحلب راعي الإبل الناقة فيه ويشرب به، وغالباً ما يكون مصنوعاً من خشب الطلح، وقد يكون من خشب الأثل، أو الغَرَب أو الإبراه ويُسمّى أيضا محلبا. ومنها أيضاً الهنابه، وهو قدح مجوّف مصنوع من الخشب يحلب فيه اللبن.

أما أدوات السقيا فمنها الصميل، وهو السقاء الكبير مع الراعي، ومن الأمثال «فلان صميل قيظ». ومنها أيضاً القِربة التي تتخذ من جلد يوضع فيه الماء يستعمله الرعاة وغيرهم. ويسمي الحضر الغضارة التي يشربون بها الماء مِشربه، جاء في اللسان «والمِشرَبة بالكسر إناء يشرب فيه»؛ قال هويشل بن عبدالله:

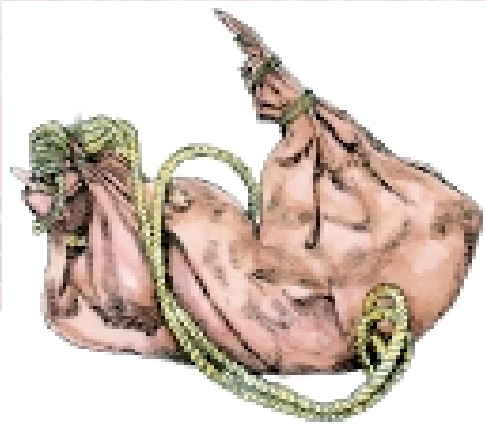

القربة

الصّميل

قيل الدبش حيـل دونه ماش مطلاب
صار الـشريده لراعـي الذود مشرابـه

ويحمل الرعاة طعامهم (زادهم) في الحيزاء وهي نوع من الزقاليب يصنع من وبر الإبل ويوضع فيه طعامهم من التمر والحبوب. ويسمـى خرج البِلْ أو عِدْل القربة. كـما يستخدمون الـقِراف وهي أوعية من جلد يحمل بها الزاد في السفر، وفي المثل «اسمعي ياشَن قرفه».

وأما اللبيد فـأداة الراعي التي يضع فيها مستلزماته وتُصنع من وبر الإبل أو الصوف، وهي المزهبة أيضاً، وهي حافظة ملابسه وأشيائه الخاصة.

أنواع المراعي

تُعد الأشـجار والشجـيرات الغذاء الرئيسي للإبل في معظم المناطق، خاصة في فصل الجـفاف، لأن نسبة البروتـين والكالسيوم والفسـفور والليجنين ترتفع فيهما. أما النجيليات (الأعشاب) فترتفع فيها نـسبة الألياف والسليـلوز، وتعتبر مصدراً للطاقة. وتكون النباتات العريضة الأوراق مـتوسـطـة بين الـشجـيـرات والنجيليات. ومع تقدم فصل الجفاف، أو زيادة استغلال المرعى تتناقص أو قد تختفي نـباتات كثيرة ذات قيمة غـذائية مرتـفعة وتبـقى الأنواع النـباتية الأقـل استسـاغة والنباتات الجـافة والشوكية، إضافة إلى الأشجار والشجيرات التي لا تستطيع صغار المجترات، كالغنم والماعز، الوصول إليها.

ونتيـجة لاعتمـاد الإبل في بيئـتها الطبيعية على نباتات خشنة شوكية كثيرة الألياف، فإنه يعتقد أنها تعتمد في غذائها على العلائق الفقيرة من الناحية الغذائية. إلا أن لهذا الموضوع شقين؛ الأول يتعلق باختيار الإبل لغذائها في المرعى، والثاني خاص بالجزء المأكول من النبات، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الإبل تحصل من المـرعى على غـذاء مرتفع الـقيمـة الغذائية.

كما أن الإبل في الصـحراء الغربية تفضل نبات الخفج الذي يشكل حوالي ٣٠٪ من عليقتها، من أصل ٤٠ نوعاً نباتياً موجوداً في المنطقة. كما تستهلك نبات العجرم والنصي التي تقاوم الجفاف وتشكل الغذاء الرئيسي للإبل مدة خمسة أشهـر من العام فـي موريتانـيا وغرب

الجزائر، على الرغم من وجود نباتات غضة مثل النصي الريشي، والثمام الصلب.

أما في شرقي السودان فتعتمد الإبل على الطلح الأحمر والسدر والهجليج وذلك في فصل الجفاف. بينما تعتمد على الثمام الصلب والساروب أو القبار والسّلم في مناطق شمالي البطانة في السودان. وقد تراوح محتوى البروتين في هذه الأنواع النباتية من ٩,٥٪ إلى ١٣,٥٪، وهي غنية بالمادة المعدنية أيضاً، إذ يتراوح محتواها من الكالسيوم من ٢,٣٪ إلى ١٠,٧٪ ومن البوتاسيوم من ٠,٠٠٢٩٪ إلى ١,٤٩٪.

السدر

وترعى الإبل في الشمال الأفريقي أنواعاً شجيرية مثل الشيح والقطف الملحي والسويدة التي تتصف بأنها غنية بالبروتين (١٧,٤٪ إلى ١٩,٢٪) والعناصر المعدنية (١٠,٦٪ إلى ٢٣,٦٪). بينما تفضل في الصومال بعض النجيليات مثل الصبط وأبو ركبة الذي يتراوح فيه محتوى البروتين بين ٧,٢٪ إلى ١٣,٣٪ ومحتوى الألياف الخام من ٢٩٪ إلى ٣٨,٤٪ والرماد من ٧٪ إلى ٩,٨٪. كما تفضل الأشجار مثل الظيّان والشجيرات مثل الأراك، ويتراوح محتواها من البروتين بين ١٢,٢٪ إلى ١٧,٥٪ والرماد من ٥,٧٪ إلى ٨٪ والألياف الخام من ٢٨٪ إلى ٣٨٪.

وفي الشمال الشرقي من الجزيرة العربية وفي منطقة الجوف في السعودية، فضلت الإبل حوالي ٢٠ نوعاً نباتياً كان أهمها القيصوم والعجرم والشيح والقطف الملحي والربل والسواد والسلة، وهي بشكل عام غنية بالبروتين (٧,٨٪ إلى ١٤,٩٪) والرماد (٩,٣٪ إلى ٣٤,٦٪).

أمّا في بوادي شرقي البحر الأبيض المتوسط فقد اختلفت مكونات غذاء الإبل حسب الموسم. فاختارت الإبل في مركز وادي العزيب شرقي مدينة السلمية في البادية السورية ٢٦ نوعاً نباتياً على مدار العام. وتتكون علائقها في بداية موسم الأمطار من النباتات العريضة الأوراق

ومن النجيليات ومن الشجيرات، وفضلت الإبل نباتات القفعاء والخبيزة والصريرة والشلوى وهي جميعها نباتات فصلية. وفي بداية فصل الربيع تكونت معظم عليقة الإبل من الشجيرات مثل الصريرة والصر والشيح والهربك، وكانت مرتفعة في قيمتها الغذائية بشكل عام مما أدى إلى زيادة أوزان الإبل في هذين الفصلين. أما في فصل الصيف، فقد اعتمدت الإبل اعتماداً أساسياً على شجيرات الصر في غذائها نتيجة بداية مرحلة النمو الخضري في هذا النوع النباتي من جهة، ونتيجة جفاف الأنواع الأخرى من جهة ثانية، ولم تكفِ كميات المادة الجافة المستهلكة لسد احتياجات الإبل فتناقصت أوزانها.

وذكر السويداء عدداً من الأعشاب والحشائش والشجيرات التي تتغذى بها الإبل مثل الربْله، الْحَوْذَان، الرَّخَامَى، الذنبان، الْبَخْتَرِيّ، النَّفَل، الْخُزَامَى، الْخَطْمِيّ، الْقَفْعَاء، الرَّقْم، الْمَكْر، الْخُبَّيْز، الْمِرَار، الْكَحَل، الذُّعْلُوق، الْخِمْخِم، الشُّقَّارَى، الْيَرَاع، الدِّرْبِيَاء، الْفُنُوْن، السَّعْدَان، الْغُرّ، رجلُ الْغُرَاب، الشَّرْشِير، الْجَنْبَة، الصِّفَّار، السِّلِيْح، الْبِسْبَاس، الْقُلْقُلاَن، الْحُمَّاض، الْجَهَق، الْحُمَّصِيْص، الْحِنْبَاز، الْقُرَّيْص، الصَّمْعَاء، الْحَمَاط، الْحَنْوَة، الْحَسَار، السُّمَيْسِمَان، الضُّرَيْسَة.

ومن الحشائش الْغَرَز، النَّصِيّ، الْقِبَة، الضَّعَة، السَّبَط، الْحَمْرَاء، الصَّحَا، السَّخْبَر، الْعَضِيْد، الثُّمَام، الشَّكِيْر، الصِّلِّيَان، الْمِصَيَّع.

ومن الشجيرات الشوكية وغير الشوكية، والأشجار كذلك الْجُرَيْبَاء، الْجَعَد، التَّنّش، النُّقْد، النَّقِيْع، الْخرْشَف، الْجُرَيْد، الْعَرْفَج، الشِّيْح، السِّلاَّء، الْقُرْضَا، الرُّمْرَام، الرُّقْرُوْق، الْجَفْن، الْقَيْصُوم، العيهل، الصِّرّ، الطَّلْح، الْعَوْسَج (الْعَوْشَز)، الْخِضْر، السُّوَاسَة، الْجَعَد، اللَّصَيّق، الْعَاذِر.

ويضيف السويداء في مادة حمض: وأحماض الإبل الرئيسية سبعة وقد تكون أكثر من ذلك حيث يقال «مرعى فيه سبع الحموضات» والأحماض المشهورة هي الرِّمْث، والْعَجْرَم، والشِّنَّان، والْفَرْس، والْخِرَيّط، والروثه، والضِّمْرَان. وقد ذكر بعضها الشاعر عدوان بن راشد الهربيد بقوله من قصيدته المشهورة الشيخة:

غَيّى لك الضمران والفرس ياسعيد

ياعل ما لحميض الاطعاس والي

ولما كانت هذه الحشائش والشجيرات لا تتوافر في كل مكان وزمان فإن

أصحاب الإبل يرحلون بإبلهم إلى المناطق التي تتوافر فيها في رحلات طويلة ما بين الربع الخالي والصمان والحزون القريبة منها منذ العصر الجاهلي؛ إذ عرفت بأنها من أفضل مناطق رعي الإبل. قال بعض العرب «من قاظ الشريف وتربع الحزن وشتا الصمان فقد أصاب المرعى». ولذلك كانت قوافل الإبل تتجه من مناطق مختلفة إلى الصمان فور وصول الأخبار عن نزول الأمطار بها. قال سعد بن عبدالله الجريس مشيراً إلى انتقاله من الدوادمي إلى الصمان بإبله:

ذودي ليا من المزون حْدَرّني
وقالوا لي الصمان عشبه مغطّيه
وتليّمن كل الطروش ومشنٍّ
كلٍّ يبى المظهار والعتش معطيه
وليا انهن قدامهن يقدعنٍّ
يشدن لصيد مفلسٍ منه راميه

أما محسن بن سلطان المسعري فقد قال قصيدة طويلة عن الإبل وعن ارتحال أهلها بها خلف المرعى من وادي الدواسر إلى الصمان وإلى الربع الخالي نورد منها ما يلي:

عسى الله يعز البل ومن هو يعزها
وعسى الله يرفع بابة من اعتنى بها
يزيدون اهلها من طربها وزودها
ويذهب بعد دوارها من ذهابها
يفزّون لى جاهم من القفر رايد
يسجّون دار الخوف لى من نووا بها
لى من لفاهم طرقيٍّ يذكر الحيا
قرايب فروع الصبح دنوا ركابها
يتلونها من ديرةٍ صوب ديره
يبون الربيع لديرةٍ قد رعوا بها
دارٍ من الوسمي تملّت هجالها
لفوهم طوفهم عقب ما دوّجوا بها
لفوهم وقادوهم وينقاد نوّهم
على ديرةٍ طوّافهم قد مشوا بها
تزبّر من المنشا قنوفه وحدّرت
تكاشف بروقه والرعد في عَقابها
يخيلونه اللي دايمٍ ينجعون له
على جَوّ فيصل مدْلِهمٍّ ربابها
تحدّر على دارٍ سريعٍ نباتها
وطلع الزبيدي دايمٍ ينلقى بها
مرابيعها الصمان لى زاف نبتها
لى لبست الجيّان زينة ثيابها
تِسجّه مجاهيمٍ طوالٍ ظهورها
زيان الوجيه اللي طوالٍ رقابها
تسجّه شمام في سهور عيانها
سبعين ليله في الخضر ربّعوا بها
خذت صالحه لين اصرم النبت وانتهى
لى هبّت النكبا وزاد التهابها
وهبّت هبوبٍ يجذب الشول يمها
يشكون رعيان الدبش من عذابها

خذتـهم تبي درب المـفاريع وانـتوت … الـى ورّدوهـا هجـلـةٍ خـابريـنـهـا
هي لى قـزت من ديرةٍ ما رضوا بهـا … كـلٍّ يـبى الاول يـطـيّـخ شـرابهـا
نووا بـالشديـد وجهّزوا يـوم عزّمـوا … تماروا وتـلّوهـا على نـقض جزوهـا
وقد ذي بيوت البـدو يطوى حجابها … عقـب ما انتهـى مرباعهـا ورّدوا بها
يـبون المـقـيظ بـديـرةٍ يـرغبـونـها … ثـعوهـا غيـاطيـل المغـنّـين بالـغنـا
إذا زل زملـوق الخضر هاجـسوا بهـا … مجـاهيـم للمـشى يـزيد ارتـكابهـا
سقتها قنـوف الصيف من رايح المطر … خذى الجـايزه راعـي طفوحٍ مـدللـه
حقـوقٍ غثـا سيـله يـغبّـي سرابـها … وخذوا مـن هجاله شـربةٍ فوّزوا بهـا
تكاشف بـروقه تعجب اللي يخـيلها … يامـا حلى حـزّة ليـالي اجتـماعهـم
عطـية سريـع المد لى اللـه نوى بهـا … على وردةٍ في الصيف يـاما حلى بها
لا انشـت قنوفـه تنـثر الما سـحابهـا … راع الذاهـبه له مـع هل الورد عـينه
همـاليل صـيفٍ والمعلّـم حكى بـهـا … يصيـد الخبر منهـا ولو ما التقـى بها
غـثيـره يبـشّرهـم صبـاحيـة المـطر … تـلافـوا علـى عـدٍّ يـودّون منـزلـه
جـذبهـم علـى دارٍ يفـزّون صابـهـا … علـى عقـلةٍ لى فـرّعوا قـيّظوا بـهـا
تمالوا على المفراع في الليل واصبحوا … عـلى قـريـه اللـي دايمٍ ينـزلـونهـا
شديـدٍ تحت نو الـكريم اجنـبوا بهـا … علـيهم بـليـل النور يـوم نْزلوا بـهـا
لى زلّـهم نـصفٍ مـن اليـوم قيّـلوا … قطـينٍ عطينٍ طـرشهـم فوق عِدّهـم
تلافـوا بربـعة نـشمـيٍّ ينـثنـى بهـا … بيوت الكرم عند الـضحى شيّدوا بها
ولى هب نـسناس النـفانيف روّحـوا … بنّـوا بيـوتٍ يعجـب العـين شوفـها
الـى مال مـنهـا فـيّهـا روّحوا بـهـا … مجـالس نشامـى ما يمِـلّك جنابـهـا
مراويـحها تـبعد بـهم عن مـقيـلها … وخذوا سجة المقطان من فوق عدهم
وهم عـن ديارٍ ما يـبون ابعـدوا بها … لى جت حلول سـهيل وتْباشروا بها
عطوها طـرف يومٍ بليلٍ علـى الوجه … يـبون الـعثـا اللـي دايمٍ يدهـلونـها
مع فـرجةٍ ذيب الخـلا قد عوى بـها … الى اللـه عمّرها بالـزهر صقّروا بـها
يسـجّون نجدٍ فـي هوى شمخ الـذرا … صقّـوا همـلهـم والمراحـيل قـرّبت
وكم هـجلةٍ فـي دربهم شرّعـوا بها … وخلى عـدّهم وبيوتهم جـلوعوا بها

دبشهم ورا القرنين تلقى دروبها
تلقاه مع ثلمة غرابٍ مذابها
يزل السلف وسبورها في نحورها
على قد ربعٍ خالي حدّروا بها
يسوقونها للجزو قطّاعة الفرج
مداوين عيلات العدو تيّعوا بها
عليهم بليل النور لى طال جزوها
وقنانيصهم تلقى الجوازي ضووا بها
قنانيص صيدٍ والدبش يسبرون له
لنشايلٍ تو نحورها شرعوا بها
هل البل مقزّية الحبارى برمسها
ياكم ديرةٍ في شقّها لوّذوا بها
هل البل على الموت المصفّى تسوقهم
على الخوف من شان الربيع جْزعوا بها
الى من ضوت من غربةٍ عقب غربه
تنومس الى منّه ضوت من غيابها

أما عبدالله بن سبيل فقد قال قصيدةً هي بمثابة تقويم سنوي لحركة البادية في الفصول المختلفة من السنة:

الله لا يسقى ليال الشفاشيف
ايام راعى السمن يخلص ديونه
فرّاق شمل أهل القلوب المواليف
وكلٍّ على فاله يباري ظعونه
والى نشد عن واحدٍ قيل ما شيف
ازروا هَل القعدان لا يذكرونه
الشيخ كنه صايلٍ يتبع الريف
ياخذ اسبوع البيت ما يبتنونه
يتلون مشهاة البكار المشاعيف
كلٍّ يبي قفره قِدِم يسهجونه
سقوى الى جت نقضة الجزو بالصيف
وابعد ثرى نقعه وكنّت مزونه
والعشب تلوي به شعوفٍ من الهيف
والشاوي اخلف شربته من سعونه
وجتنا جرايرهم تِدِقّ المشاريف
البيت يبنى والضعن يقهرونه
وتقاطروا مثل الجرار المقايف
وراعى الغنم عن مرحهم يفهقونه
وتواردوا عدٍّ شرابه قراقيف
العد لو هو بالفضا يشحنونه
وكلٍّ نصا القريه يدور التصاريف
والى له احبابٍ لبابٍ يجونه
وتسعين ليله جانب العد ما عيف
ولا للشديد مطريٍّ يذكرونه
وهبّت ذعاذيع الوسوم المهاريف
وسهيل ييدي ما بدا الصبح دونه
وجاهم من القبله ركيبٍ مواجيف
وحضور يوم ان النخل يصرمونه
والعصر بالمجلس مضال وتواقيف
وامسوا وتالى رايهم يقطعونه
والصبح طوّن البيوت الغطاريف
والمال قِدْم اطلاقته يصبحونه
وراحوا مع الريدا وساع الاطاريف
يذكر لهم مندىً شبيعٍ يبونه

مـقيـاظهـم خِلّـي بْلَـيّا تـواصـيف
قـفرٍ عـلـيه الـذيـب يرفـع لحـونه
أويّ جـيـرانٍ عـلـيـهـم تحـاسـيـف
لولا انـهم قـلب الخـطا يـشعـفونه
والى تـعلّـوا فوق مـثل الخـواطيف
كـم مايـقٍ بارمـاحـهم يـزعجـونـه
ولهـم على حـلّ المواسم مـحاريف
والـى جـذبـهم قـايـدٍ يـتـبـعونـه
هـذى مغـاويـر وهـذى منـاكـيـف
وهـذا يـبـيـعونـه وذا يـاسـمـونـه
والى تـقضّـوا ما عليـهـم تحاسيف
ومن ايـن ما طـاح الحيـا ينجـعونـه

وعلى كلٍ فإحماض الإبل هو أكلها لأي نوع من أشجار الحمض، وهـو ما كان مـالحاً من الـشجر، فـإن لم تجده استعاض أصحاب الإبل عنه بإعطاء إبلهم الملح.

وذكر الحبردي أن للإبـل أنواعاً من الأشجار والأعشاب التي تستمتع بأكلها وتكتنز أسنـمتها بالشحم وتكثر ألـبانها عندما تتوافر لها، وهي تختلف باختلاف المناطق إلا أن شجرة الروثة هي أشهرها. وقد أورد قصة خرافية طريفة عن أفضلية هذه الشـجرة للبعيـر مقارنة بالأشجـار الأخرى فقال:

يقال إنه عندما كان كل شيء يتكلم، كان الحوار يسيـر بجوار أمه الناقة ويسألها عن أسماء الأشجار فتخبره بها. فكل ما قال الحـوار: ما اسم هذه الشجرة؟ قالت له: هذه عرفجة وهذا سعـدان وهذا حمض وهـذا رمث وهذا سبط وهذا نصي وهذا غضا وهكذا، حتى وصلت النـاقة إلى الروثة فعندما سألها عنها قالت له: هذه (كُلْ واسكت) أي أن هذه الشجرة يجب أن لا تخبر بها أحداً فـيسـبـقـك عليـهـا ويـأكـلـها (١٤٠٩: ٧٠).

وتتحرك الإبل وهي تأكل ويمكن أن يقطع حوالي ٥كم في ساعتين ونـصف أثناء الرعي. وعند مرورها بالأعشاب، والنباتات فإنـها تلتقط منها قليلاً مـهما كانت نوعية النبات جيدة أو غير جيدة، بسبـب إقبال الإبل عـلى تنوع مصـادر غذائها. أما في حالة الجفاف فإن قطيع الإبل يتوزع في مـجاميع، كل بعير أو بعيرين معاً، وقد اتضح لعلماء البيئة أن الإبل لا تسـبب أضراراً للمـرعى، بل بالعكس من ذلك فقد لوحظ أن نباتات المكان الذي رعته الإبل في حالة أفضل من المكان المحمي.

وفيما يلـي تعريف بأشهر النباتـات التي تتغذى بها الإبل، ووصف لقيمتها الغذائية:

تتوزع الإبل في مجاميع عند الرعي في حالة الجفاف

العرفج: هو من النباتات المنتشرة في المملكة العربية السعودية والكويت والعراق. ونباتات العرفج نباتات معمَّرة، لها رائحة عطرية وذات سيقان خشبية رصاصية اللون، أوراقها خضراء طولها نحو ٢سم، وتكون عادة ملساء، أو ذات شعيرات طويلة، ولون أزهارها ذهبي أصفر. ويحتوي هذا النبات على ٤٧,٥٪ من البروتين و٣,٥٪ من الدهن، أما الألياف فنسبتها ٤٤,٢٠٪ في الأوراق والسيقان.

الرمث: من النباتات الحمضية الرعوية للإبل، ترعاه إذا لم تجد أفضل منه من النباتات الحمضية. وتستعمل أغصانه وجذوعه وقوداً وهي طيبة الرائحة عندما تشتعل فيها النار. وتمتاز هذه النبتة باحتوائها على ١١,٤٪ بروتين و٢,٨٪ دهن، ١٤,٨٦٪ ألياف، وذلك في دور نموها الخضري. وشجرة الرمث شجرة معمرة، ارتفاعها حوالي متر، وهي ذات أغصان وسيقان أسطوانية، مفصَلية الشكل، لها أوراق حرشفية مغطاة بطبقة

الرّمث

شمعية خضراء داكنة، تنبت في مراعي المملكة العربية السعودية والكويت والعراق وسوريا والأردن. وهناك أسطورة تقول بأن الإبل أول ما خُلقتْ من الرمث، وعلامة ذلك -كما تروي الأسطورة- أنك لا ترى دابة تريده إلا الإبل.

الرغل: نبتة ذات سيقان خشبية متعددة ومتفرعة، لونها رصاصي، أوراقها رمادية اللون، ومحتواها من البروتين ١٥,٤٪ ومن الدهون ٠,٨١٪ ومن الألياف ٢٠,٦٪ وذلك في بداية النمو. وينتشر الرغل في الجزيرة العربية والكويت والعراق وسوريا والأردن. ويُعرف رعيه في عَبَس الإبل تظهر آثاره على أرجلها. والرغل جنس من الروثة تفضلها الإبل في المرعى. وهي من أشهر وأفضل نباتات الحمض التي تسمن عليها الإبل.

القيصوم: شجيرة معمَّرة، لها رائحة عطرية، سيقانها عديدة، بيضاء أو رمادية، صوفية الملمس، صلبة ورفيعة، أزهارها صفراء برتقالية، تحتوي على ١٨,٢٤٪ من البروتين و٢,٦٪ من الدهون، و١٧,٣ من الألياف، وذلك في دور الإزهار. تنبت في المملكة العربية السعودية والكويت والعراق. وأكثر ما تستسيغها الإبل في فصل الشتاء.

الشيح: شجرة معمَّرة، ذات سيقان عديدة متفرعة من قاعدتها الأرضية، ارتفاعها ٥٠سم، أوراقها خضراء داكنة، لها رائحة عطرية طيبة، تحتوي أوراقها على ٢٥,٥٪ بروتين، في دور النمو الخضري، وعلى ٣,٣٪ دهون، و١٠,٦٪ من الألياف وتنتشر في جميع البلاد العربية. والشيح من أمرار الأشجار. وهو والقيصوم من أكثر ما تستسيغه الإبل.

القيصوم

الشيح

الثمام: نبات معمَّر، لونه أصفر مائل إلى الزرقة، سيقانه خشبية منتصبة أو زاحفة أو منحنية، كثيرة التفرعات، الأوراق السفلية شريطية إلى رمحية قاسية، طولها حوالي ٨سم وعرضها ٦-٨مم. وينتشر في المملكة العربية السعودية والكويت والأردن وسوريا وعُمان واليمن وموريتانيا والسودان.

الثمام

النصّي: نباتٌ معمَّر، ربيعي، سيقانه منتصبة، أوراقه خشنة، يبلغ ارتفاعه حوالي ٤٠سم، في دور الإزهار، يحتوي على ٩,٥٪ من البروتين، و١,٥٪ من الدهن، و٢٩٪ من الألياف. وينتشر في جميع البلاد العربية تقريباً.

الثدّاء: نبات عشبي معمَّر، يبلغ ارتفاعه من ٣٠ إلى ٦٠سم، ذو سيقان وأغصان مفصلية غليظة، لون أوراقه أخضر باهت، ولون الأزهار أصفر مخضر.

العجرم: نبات ذو سيقان وأغصان أسطوانية مفصلية غليظة، أوراقه حرشفية، ينتشر في الجزيرة العربية والعراق والكويت، وهو من الحمض.

الفِرس: وهو شجيرة من أشجار الحمض المفضلة لدى الإبل، جيدة الحطب في الشتاء، وفيها المثل القائل «عينك بالفِرس إذا ابتلّ الحطب».

الروثة: وهي من الحمض، ويفضل الشرارات رعي الروثة المخومة في الصِّفْري، والخوم هو بذورها، ويصفونها بحب الرمان.

النصي

الرّوثة

الضمران: وهو نبت من مراعي الإبل المفضلة، والضميرينة جنس من الضمران، ولكنه أصغر منه، وهو من الحمض.

الغضا: من مراعي الإبل المشهورة. وتستعمل أغصانه وجذوعه وقوداً، وناره تبقى مدة أطول، وجمر الغضا مضرب الأمثال عند العرب؛ قال الشاعر الكذيبة:

تلقين من شمط الهبايب مذاري

وجمر الغضا يشعل سناهن بلا طرق

السحم: ويسمى الهتلا، والحمرور، يقولون في المثل «يهزني عليه عود السحمه» لأن الإبل إذا شبعت من السحم تأخذ فترة أطول وهي بدينة، أما النصي فهو ينهمك بسرعة في بطونها وتضمر؛ قال النابغة:

إنّ العريمة مانع أرماحنا

ما كان من سحم بها وصفار

السبط: وهو علف تُحشى منه الأوثار، ويقال إن السبط يأخذ في كرش البعير خمس عشرة ليلة، وتظل الإبل التي تأكله تدمن السبط؛ وذلك لمنفعته وطول بقائه. قال أبو حنيفة: وزعم بعض الرواة أن العرب تقول: الصليان خبز الإبل والسبط خبيصها.

الثغام: وفي المثل «أبيض من لون الثغامة»، وهو قريب من النصي.

الكداد (الكتاد أو القتاد) وهو شجر له شوك يحرقونه ويعلفونه الإبل الثاوية فتسمن عليه لقيمته الغذائية، وهذه طريقة قديمة عرفها العرب حيث تضرم به النار لتحرق أشواكه العاسلة وتبقى أغصانه، ويسمى الشَّويط، ثم ترعاه الإبل فتسمن عليه وقت الجدب، وقيل «إبل قتادية» لأنها تأكل شوك القتاد فضلاً عن نبات الزهر والحاذ والعبل (الأرطى)، وهو كذلك مما تقبل الإبل على رعيه في منطقة الربع الخالي.

وتختلف النباتات التي تتوافر للإبل وتتغذى بها باختلاف المناطق التي تعيش فيها وتتكاثر. ففي موريتانيا يكثر النصي والثمام، وفي السودان يكثر المرخ والطلح والسلم، وفي اليمن وعمان ينبت الأثل والكفل والأراك. وفي تونس ينبت النصي والشيح والحلفا والثمام.

وعن كيفية تعليف الفلاحين لإبل السواني، ذكر السويداء أن المرأة تجهز علف الإبل؛ فتجمعه من المزرعة إن كان أخضر، أو تدقه وتقطعه إن كان يابسا بأداة تشبه السكين الكبيرة تسمى الحيف، ثم تخلطه ببعض المغذيات مثل الخبط (ورق شجر الطلح وما شابهه)، ثم تحضره في إناء كبير (الجذعه) لتعليف

الإبل. فتضع العلف في أشداقها لقمة بعد لقمة حتى ينفد ما في الماعون (الجذعه). وأوقات علف الإبل مع طلوع الشمس أو قبله قليلا، وعند آذان الظهر، وبعد المغرب. وكيفية الإطعام أن تأخذ المرأة اللقمة ملء يدها اليمنى وتفتح فم البعير بيدها اليسرى ماسكة شفته العليا، ثم تدفع اللقمة في فمه ليمضغها ثم يزدردها، وهكذا دواليك إلى آخر ما معها.

وقد وضع الصانع جدولاً بيّن فيه المكوّنات الأساسية التي تحتوي عليها بعض الأعشاب الرعوية التي ترعاها الإبل. وهي تشكل مؤشراً على محتواها الغذائي، مع ملاحظة أن هذه المكونات تتغير وفقاً لأطوار النمو في النبات.

ومما يلحق بتغذية الإبل ما يسمى اجترار الإبل وقد ذكر العرب له عدة أسماء، منها الجِرَّة وهي ما يخرجه البعير من كرشه فيأكله ثانية. والقريض: ما يرده ثانية من جرته ويمضغه. والضمز هو أن يمسك البعير عن جرته فلا يجتر، وتسميه البادية الكظم، فإذا كظم البعير جِرته فازدردها وكف عن الاجترار فهو كَظوم. أما الدَّسع فهو إخراج البعير الجرة من جوفه ودفعها إلى فمه. والمِزرَد خيط يخنق به البعير لئلا يدسع (يدفع) بجرته إلى خارج فمه. وإخراج الجرة عند الرغاء يسمى البغرة، وتسمى الجرة المخرجة البغار.

وعندما يمتلىء فم البعير بالعلف يبدأ بمضغه (يعلكه) ببطء، خاصة إذا كان يحتوي على أشواك طويلة، وهذه

النبات	الرمث	الثمام	الثدا	العرفج	القيصوم	الرغل	النصي	الربلة	الروثة	الشيح
الرماد ٪	١٦,٩٨	٨,٣	٧,٦٥	٨,٧٤٤	١٠,٦٦	٢٥,٥٧	١٨	٤٦,٧٨	٢٢,٧٤	٩,٥٩
الألياف ٪	٢٠,٤٥	٣٤,٩٤	٢٨,٩	٢٥,٦٦	٧,٢٨	٤٠,٢٥	٤٥,٨٧	١١,١	٣٢,٧	٢٦,١٤
البروتين ٪	١٤,٤٨	٧,٨٩	٦,٤٢	١١,٦	١٠,٠٧	١٧,٥	١٥,٧٥	٤,٦٩	٧,٥	١١,٦
البوتاسيوم ٪	١,٥٠٦	٠,٩٧٩	١,٠٢٥	١,٠٥٦	١,٢٥١	٢,٦٥٩	١,٤٩	-	-	-
الفوسفور ٪	٠,١٣٥	٠,١٩٤	٠,١٠٢	٠,٢١٨	٠,١٣	٠,٣٦٨	٠,٧١٤	٠,٦٨	-	٠,٧٥
الكالسيوم ٪	٢,١٤٨	٠,٧٢٦	٠,٨١٤	١,٠٠٧	١,٣٢٩	-	١,٣٦٠	٨,٢٨	٨,٤	٠,٩٧

(الصانع ١٩٨٤: ١٤٦).

إبل تجتر وسط النهار

الأشواك تجعل البعير يمضغ وفمه مفتوح بسبب عدم قدرته على إغلاقه، فيمضغه في كل مرة على جانب من فمه؛ مرة على الجانب الأيسر وأخرى على الجانب الأيمن حيث تتلامس الأسنان المتقابلة في كلا الفكين. ويرجع ذلك لضيق الفك السفلي لدى البعير عن الفك العلوي. ويمضغ البعير طعامه، مثل معظم الحافريات الأخرى، عدداً من المرات على جانب واحد من الفم قبل أن يتحول إلى الجانب الآخر. ولكنه عندما يجتر فإنه يمضغ الجرة على الجانبين بالتبادل. وكل جرة تمضغ من ٤٠-٥٠ مرة، وفي بعض الأحيان يصل عدد مرات المضغ إلى ٧٠ مرة، وتستغرق كل مضغة مدة زمنية تقدر بحوالي ثانية واحدة. ويجتر البعير عادة في وسط النهار وخلال الليل، ويتغذى معظم الوقت الباقي.

سقيا الإبل

إنَّ المركز الفعلي للإحساس بالعطش يقع في منطقة صغيرة من الجدار السفلي للدماغ، الذي يسمى سرير المخ، بجوار الغدة النخامية مباشرة. ففي هذه المنطقة توجد أعضاء الإحساس بالظمأ، حيث يمكن لهذه الأعضاء أن تعرف نسبة الماء إلى الملح في الدم. وعند أي نقص في هذه النسبة بمقدار ١-٢٪ من النسبة الأصلية يرسل مركز الإحساس بالظمأ إشارات حسية للجدار البطني لسرير المخ،

الذي يفرز بدوره هرموناً يؤثر في الخلايا المبطنة للجزء الخلفي من الحلق. وما إن تتأثر تلك الخلايا بهذا الهرمون، حتى تبدأ بإرسال إشارات حسية إلى قشرة المخ فتسبب الشعور بالظمأ. وهذا المؤشر الحسي يعني أن نسبة الماء إلى الملح في الدم قد اختلت، ولا بد من شرب الماء لإعادة هذه النسبة إلى حدودها الطبيعية. ولهذا فإن الإنسان أو الحيوان عندما يشرب الماء فإنه يعمل على توازن نسبة الماء إلى الملح في الدم، إضافة إلى استخدام الماء عبر الكليتين في طرد مخلفات البروتينات والأملاح خارج الجسم. أما الإبل، فإنها تستطيع أن تفقد عشر ما في بلازما الدم من ماء، ونحو ثلث ما في باقي أجزاء جسمها دون أن تتأثر بذلك. ويمكن أن تعوض النقص كله في دقائق معدودات، إذا ما أتيحت لها فرصة للشرب.

وينقل الصانع أن الإنسان لا يستطيع أن يتحمل العطش أكثر من يوم أو يومين في الظروف المناخية الحارة من دون ماء؛ فهو إذا فقد نحو ٥٪ من وزنه ماء فقد صواب حكمه على الأمور. أما إذا فقد ١٠٪ من وزنه ماء فإنه يفقد إحساسه بالألم وتصم أُذناه، ويهذي. أما إذا تجاوز فقده لنسبة ١٢٪ من وزنه ماء فإنه يفقد قدرته على البلع، فتستحيل عليه النجاة حتى إذا وجد الماء، إلا بمساعدة منقذيه،

حشوان واردة إلى الماء

ويسقى بالتدرج. ولكن الإبل قد تفقد ثلث وزنها من الماء وتمضي في حياتها، لا تخور قواها. فإذا ما وجدت ماء عبَّتْ منه دون مساعدة أحد. وقد لوحظ أن بعيرا حرم الماء في قيظ الصحراء ثمانية أيام، ففقد من وزنه مائة كيلوجرام، فلما قدم إليه الماء، تجرع منه نحو مائة لتر في عشر دقائق.

وتعتمد قدرة الإبل في الصبر عن الماء على نوع النبات الذي ترعاه. وقد تبقى سنة كاملة دون ماء إذا وجدت نباتات خضراء في مرعاها مثل الزهر والعندب في منطقة الربع الخالي مثلاً. وفي هذه الحالة فهي لا ترعى إلاّ بالليل، أما في النهار فتبرك تحت ظل أشجار الأرطى والسمر، وهما شجرتان تكثران في جبل العارض. وعندما لا تجد الإبل نباتاً أخضر ترعاه فإن فترة الجزو لا تطول أكثر من خمسة أو ستة أشهر. فإذا قطعت الجزو ووردت الماء، فإنها بعد ذلك لا تستطيع أن تصبر عن الماء أكثر من أسبوع إلا عندما يكون في مرعاها نباتات خضراء تحتوي على كميات من المياه كما تقدم.

كما أن الإبل تمتاز عن الإنسان بقدرتها على إطفاء ظمئها بأي نوع من الماء تجده، فهي إذا اضطرت تشرب من مياه المستنقع الشديد الملوحة، أو المرارة، وتأكل إذا ما شح المرعى من الأعشاب المالحة. وترجع مقدرة الإبل على تجرع محاليل الأملاح المركزة إلى استعداد خاص في الكليتين لإخراج تلك الأملاح.

ونظراً لعدم وجود حوصلة صفراوية في كبد البعير فإن كبده تحول نسبة كبيرة من المواد النيتروجينية إلى المعدة ليُعاد استخدامها في بناء مواد بروتينية أخرى. وهذا عكس ما يحدث في كبد الإنسان والحيوانات الثديية الأخرى التي تحول جميع المخلفات البروتينية التي تتكون لديها إلى الكليتين، لتطردها خارج الجسم.

إن قدرة الإبل في الصبر على الظمأ، قدرة كبيرة، وهبها الله لها، لتستطيع أن تتكيف مع ظروف بيئتها القاسية. فهي تستطيع أن تصبر عن الماء في هجير الصيف إلى مدة أسبوع أو أكثر قليلاً. وتعتمد في هذا الصبر على صفاتها الوراثية، ومدى إجهادها، ودرجة الحرارة، ونسبة الرطوبة، ونوع الغذاء الذي تقتاته. فهي في الشتاء تصبر عن الماء لمدة شهرين حتى أربعة أشهر، إذا كانت نباتات المرعى خضراء وطرية غير يابسة، فهي تأخذ منها ما تحتاج إليه من الماء.

ويقول الصانع: لاحظت عند سلخ جلد الجمل، أن اللحم وجميع أجزاء الجسم بعد السلخ مباشرة رخوة وطرية، وليست متصلبة، وذات ملمس ناعم، ورطب، وكأن اللحم مبلول بالماء، وبشكل واضح، ومختلف عن لحوم الأبقار والأغنام. وبعد فترة جفت العضلات اللحمية، وبدت أكثر جفافاً. ولهذا فإن الاحتمال بوجود الماء موزعاً بكميات على أجزاء جسم البعير وبين عضلاته أمر وارد (١٩٨٤: ٨١-٨٤).

ويقول الصانع أيضاً إن هذا يؤكد ما ذكر عن احتواء كروش الإبل على جيوب مائية تعدّ مصدراً من مصادر إمداد الحيوان وقت الحاجة. والمقصود بالجيوب المائية هذه الخيوط المتشعبة للحجرة، إلا أن الأمر الذي لم أجد له تفسيراً علمياً هو ما ذكر عن خالد بن الوليد #، حينما أمره عمر بن الخطاب # بالتوجه من العراق إلى الشام، وبأسرع وقت لنجدة أبي عبيدة بن الجراح #، في معركة اليرموك. فكان عليه أن يقطع مفازة من الصحراء القاحلة، التي يحتاج قطعها إلى أسبوعين، فعمد إلى إرواء الجمال التي سوف تنقله وجنده إلى اليرموك، عبر هذه الصحراء. ثم ربطوا أفواهها. وكانوا كلما قطعوا مسافة وعطشوا، قاموا إلى بعض الإبل ونحروها وشربوا مما بها من ماء. هذا ما نقله الرواة لنا. والمعروف في مثل هذه الحالات، أن أبناء البادية إذا احتاجوا للماء الذي في جوف البعير فإنهم يتركونه يرعى لفترة قد تصل يوماً كاملاً من مرعى أخضر، ثم يتبعون إحدى هاتين الطريقتين:

١) التبغير: فيبركون البعير -بعد عِقاله- ويفتحون فمه عنوة، ثم يدخلون عوداً أو نحوه في الحلق. فيقذف البعير ما بجوفه من فرث، فيتلقونه في إناء ثم يعصرون البغار في قطعة من قماش خفيف.

٢) الذبح: وهنا يستخرجون الكرش ويعلقونها، ثم يخرقونها في مواضع عدة، بشوكة أو مخيط، ويضعون تحتها إناءً لجمع الماء.

وفي كلتا الحالتين، التبغير أو الذبح، فإنهم عند شرب الماء يضعون قطعة من قماش يصفُّون الماء من خلالها لزيادة نقاوته. وأمر طبيعي أن يكون لهذا الماء المستخرج بالتبغير أو بالذبح رائحة كريهة، ولكنه يكون دافعاً للعطش عند الضرورة.

إذاً فالأمر يدعونا إلى التساؤل عن مصدر أو مكان الماء الذي وجدوه في كروشها، هل هو من الكرش؟ أم من الجيوب الموجودة في الحجرة الثانية

للمعدة، والتي تحتوي، كما ذكرنا، على مقدار من الماء وبها العصارات الهضمية والكائنات الحية الدقيقة مما يجعل الأمر صعباً في اجتراع هذه السوائل؟ لا بد أن يكون هناك مصدر آخر لخزن الماء صافياً إلا أنه لا زال خافياً علينا (١٩٨٤ : ٨٤).

يقول السويداء معلقاً على هذه النقطة: في مثل هذه الحالة الاضطرارية لا يتطلب أن يكون الماء عذباً صافياً بل يضطر الإنسان في حالة العطش أن يشرب الماء العكر ليروي غلته، وهذا ما جرى لخالد ابن الوليد رضي الله عنه وأصحابه.

ومثل هذه الحادثة جرت في بداية القرن الرابع عشر الهجري على مجموعة من الغزو شربوا الماء من عصارة فرث البعير؛ بحيث يترك الماء قليلاً بعدما يستخرج من الفرث حتى تترسب بعض عوالقه ثم يأخذون منه بقدر ما يبل حلوقهم بحيث لا يزيد ما يأخذه واحد عن الآخر حتى يجدوا الماء. وهناك من ذكر أن البادية كانت تقوم بقطع لسان البعير بعد إروائه حتى لا يتجرر ومن ثم الاستفادة مما في بطنه من الماء وذلك عند السفر لمسافة طويلة تنعدم فيها موارد المياه وهذا على كل حال أمر نادر الحدوث.

لهذا فإن كل الاحتمالات التي ذكرت كمصدر لإمداد الإبل بحاجتها من الماء، هي احتمالات واردة. ولكن لا بدّ من التركيز على دراستها دراسة مستفيضة لتتحول هذه الاحتمالات إلى حقائق مؤكدة.

أما عن كيفية استخدام هذا الحيوان للماء استخداماً اقتصادياً فيقول الصانع إنّ الله تعالى وهب الإبل بعض الخصائص التي ساعدتها على التكيف والاقتصاد في استهلاك المياه، وهي خصائص مازالت أيضاً بحاجة إلى دراسة وبحث، ومازال ما كشف منها عرضة للاجتهادات.

ومن الثابت علمياً أن أهم المواد التي تعتبر مخلفات، تنتج عن هدم المواد البروتينية. فكلما دعت الحاجة إلى استخراج كميات أكبر من اليوريا استهلك الإنسان أو الحيوان كمية من الماء. ولكن الأمر يختلف لدى الإبل، فمعظم اليوريا تفرز من بطانة المعدة، حيث تكون هذه اليوريا مصدراً غذائياً للكائنات الحية الدقيقة التي تعيش في كروش الإبل، وتعمل على هضم السليلوز. كما أن ما يزيد عن حاجة هذه الكائنات الدقيقة، يخرج مع الدمن، دون حاجة إلى إذابته في ماء. وبهذا الأسلوب يتوافر مقدار كبير من الماء ويخفف العبء على الكليتين، ويقتصر عملهما على إخراج

الأملاح الزائدة على هيئة بول شديد التركيز، بعد استعادة معظم ما فيه من ماء يرد إلى الدم.

ومن مميزات الإبل في الاستفادة من الماء، وتقليل الفاقد منه، ما يمكن أن نسميه جهاز ضبط الحرارة في أجسامها، وهو جهاز غاية في الدقة. فإذا كان الجمل مرتوياً، يباشر الجهاز عمله كالمعتاد دون تفاوت كبير في درجات الحرارة في الجسم، سواء في النهار أو الليل، في الصيف أو الشتاء. ويكون التفاوت في درجات الحرارة في حدود سبع درجات، ما بين ٣٤ْم في الصباح الباكر و٤١ْم ظهراً، وهذه كلها درجات طبيعية يتحملها الجمل دون أي تأثير مرضي عليه.

وتكون نتيجة هذا التفاوت في درجات الحرارة، زيادة سعة الجسم في اختزان الحرارة، فلا يضطر البعير إلى التعرق إلا إذا تجاوزت حرارة جسمه ٤١ْم، ويحدث ذلك في فترة قصيرة من النهار. أما في المساء فإن الجمل يتخلص من الحرارة التي اختزنها بإشعاعها وتوصيلها إلى الجو المحيط به، دون أن يفقد قطرة ماء، وهذا يوفر للجمل ما مقداره خمسة لترات من الماء.

ويكتسب الجسم الحرارة من الوسط المحيط به بمقدار الفرق بين درجة حرارته ودرجة حرارة ذلك الوسط. فلو كان الفرق بين درجة حرارة الجمل ودرجة حرارة الجو كبيراً، كالإنسان مثلاً، لامتص الجسم كمية من الحرارة كبيرة نسبياً. ولكن الإبل لها المقدرة على رفع درجة حرارة أجسامها إلى ٤١ْم، ليصبح الفرق قليلاً، ويصبح تبعاً لذلك ما يمتصه الجسم من حرارة قليلاً أيضاً.

وعلى هذا يمكننا القول بأن كبر حجم الإبل ميزة من ميزاتها لأنها تجعلها أقدر على الاقتصاد في استهلاك الماء الموجود في أجسامها. فمن المعروف أن معدل اكتساب أو فقدان الحرارة يتناسب طردياً مع مساحة الجسم، وكلما كان الجسم كبيراً، زاد مقدار ما يفقده أو يكتسبه من حرارة. ولهذا فإن كمية الحرارة التي يكتسبها الجمل من الوسط الخارجي كبيرة، إلا أن مقدرته على رفع درجة حرارته إلى ٤١ْم تقلل من كمية الحرارة المكتسبة، وتقل من ثَمَّ كمية العرق المفرز لتلطيف الجسم والتخلص من الحرارة الزائدة. ولذلك فإن حجم الجمل الكبير، بموجب هذه القاعدة، سوف يفقد كمية من الحرارة بالإشعاع، ولكن مقدرته على خفض درجة حرارته إلى ٣٤ْم تجعل كمية الحرارة المفقودة قليلة نسبياً.

ويلاحظ كذلك أن سنام البعير والجزء العلوي من جسمه، مغطى بوبر كثيف يسقط معظمه بعد انتهاء فصل الشتاء. ولكن نلاحظ في المنطقة الجنوبية مثلاً أن كل الوبر يسقط مما يدل أن كمية الوبر لا علاقة لها بتقليل كمية الفاقد من الماء، وعلى كلٍ فإن ما يتبقى منه في الصيف يعمل عازلاً لجلد البعير عن الجو الساخن، فيقلل من تعرضه للحرارة. ومع هذا فإن قلة كثافة الوبر على أجسام الإبل في الصيف لا تحول دون تبخر كمية من العرق نظراً لجفاف الجو، إلا أن كمية العرق ستكون كبيرة لو كان الجسم غير مكسو بالوبر. وهذه ميزة في تقليل كميات المياه المفرزة لتلطيف درجة حرارة جسمه. كما أن رقة الطبقة الدهنية في جلده بسبب اختزان معظم الدهن في سنامه، تجعل الأوعية الدموية قريبة من السطح الخارجي لجسمه، مما يسمح بإشعاع حرارة الدم، أو نقلها إلى الجو المحيط به، دون الحاجة إلى إفراز عرق وفقد كمية من المياه.

ويختتم الصانع كلامه فيقول «هذه العوامل التي وهبها الله سبحانه وتعالى لهذا الحيوان، وغيرها من العوامل الأخرى التي لم تكتشف بعد، جعلت منه نموذجاً فريداً لمقاومة ظروف بيئته ذات المناخ المتطرف برداً أو حراً، والغذاء الشحيح الفقير في مكوناته الغذائية» (١٩٨٤: ٨٤-٨٨).

ويرتبط الماء والصحراء بالإبل ارتباطاً شديداً؛ فالصحراء وما فيها من نباتات مصدر غذاء الإبل، والصحراء بينابيعها وعيونها وغدرانها ووديانها ومستنقعاتها وآبارها مصدر لهذا الماء الذي لا يستغني عنه البعير، وطبيعي أن انقطاع أحد هذين العنصرين، أو كليهما، انقطاع لحياة البعير أو لحياة أي كائن حي آخر.

صفات السقيا

لطبيعة العلاقة الحميمة بين الماء والإبل، ارتبطت عملية الإرواء والسقي التي تتكرر بين الفترة والفترة بأساليب خاصة بها. والسقي عملية يؤديها الرعاة ويتفاوتون في إتقانها. وقد قال أحد الشعراء مخاطباً رجلاً لا يحسن سقاية الإبل:

أوردها سعد وسعد مشتمل
ما هكذا تورد ياسعد الإبل

فذهبت مثلاً على رغبة البدو في حسن القيام على سقاية الإبل التي هي نصف مهمة الراعي. وقد تفنن الرعاة في ابتكار أسماء وصفات ورود الإبل الماء وهيئة ذلك، وأشكال السقاية والري

والعطش، وأيام الظمأ التي يتحملها البعير. واتخذوا لكل حالة من هذه الحالات أو الهيئات أسماء وصفات وتعابير تتصف بالدقة في وصف الحالات المتقاربة والمتفاوتة والمتشابهة؛ فمن ذلك أن تجترئ الإبل بالعشب الرطب عن الماء، ويسمونه الأُبول والجزءُ والجزو، فإذا احتاجت إلى الماء اتجهت إلى موارد المياه ويسمون ذلك الورد ويسمى مكان الورود المنهل (المشرب) ثم كثر حتى سميت منازل المسافرين مناهل.

ونقضة الجزو عندهم هي وقت اشتهاء الإبل للماء بعد فترة الربيع ورعي أعشابه، وأشد وقت تحتاج فيه الإبل للماء عند طلوع الجوزاء وطلوع الكليبين، وهما نجمان متوازيان يظهران بعد ظهور الشعرى اليمانية بنحو ٢٦ يوماً، وهما من النثرة، هذا الوقت هو قلب جمرة القيظ، وهو الذي يقال له «محنّن الجمل» من شدة العطش. ونقضة الجزو أشار إليها شايع الأمسح الرمالي عندما قال:

أبي عليها نقضة الجزو غزوه
ياشافت الخفرات غاوي دلالَه
نبي عليها ذود قنٍّ مقصّر
قليل الحساني قاطعٍ في عياله
لا مِكرِمٍ جاره ولا الضيف لافي
يمناه بالمدّات ما اعطت شماله

وقال عنها محسن بن سلطان المسعري:

ليا وردّوها منهلٍ يعجب الورّاد
مقْرٍ لهم في نقضة الجزو يردونه

فإذا كانت الإبل بعيدة المرعى من الماء، فأول ليلة يوجهها الراعي إلى الماء تسمى ليلة الحوز أو ليلة الجر، كما تسميها البادية ليلة القرب؛ وأنشدوا:

حوّزها من بُرَق الغميم
أهدأ يمشي مشية الظليم

فإذا وردت ماءً لا يمتح من آبار فإن ذلك يسمى التشريع، وهو سقي الإبل

الإقناع

شراع الماء، أي دون أن يستقى لها، ومن أمثالهم «أهون السّقي التشريع». وشرعت الإبل إذا مدّت رؤوسها للماء، وهو الإقناع أيضاً، وقيل الخافضة رؤوسها عند الشرب.

ويسمون أول شربها النَّهَل، فإذا شربت مرة أخرى فذلك العلل، وقد أعللتها أي أصدرتها ولم تروها حتى علّت، وقيل العلل تتابع الشرب.

وإذا خلّوا وجوه الإبل إلى الماء وتركوها ترعى تلك الليلة فهي ليلة الطلق، والطالق هي الناقة المتوجهة إلى الماء، وقيل هي ناقة ترسل في الحي ترعى من جنابهم حيث شاءت ولا تعقل.

ويقال للناقة المتوجهة إلى المنهل قارب أيضاً. وليلة القرب هي الليلة الثانية التي تترك فيها الإبل لتقترب من الماء بعد الرعي. سئل أعرابي ما القرب؟ فقال: سير الليل لورود الغد. وإذا كانت إبل القوم قوارب في طلب الماء قيل هم قاربون، ويسمون شدة القَرَب إلى الماء التخيب؛ قال ذو الرمة:

ورب مفازة فذف جموح
تغول منحِّب القَرَب اغتيالاً

فإذا وصلت إلى الماء سميت أوائلها عوارض وعارضات؛ قال شاعرهم:

كرام نيال الماء قبل شفاههم
لهم عارضات الورد شم المناخر

التّشريع

وصبحت الإبل إذا سقيتها أول النهار، والظاهرة والقائلة إذا شربت كل يوم نصف النهار، وهي إبل ظواهر. أما الرغرغة فأن يوردها يوماً بالغداة ويوماً بالعشي، وهو أول الإظماء وأقصره. والرغرغة أيضاً هي كثرة رغاء الإبل عند رسنها بالرسن أو شكمها بالشكيمة أو عند الإمساك بها أثناء الطلاء. ويسمى ما بين الشربتين الظِّمْء، ونسأت في ظمأ الإبل: زدت في ظمئها يوماً أو يومين، ونسأتها عن الحوض أخرتها.

والثِّلث في موارد الإبل ظمأ يومين أو شربتين، ويسمى عند البادية الرّبع. والربع عند العرب أن تحبس عن الماء أربعاً ثم ترد في اليوم الخامس، وقيل هو أن ترد في اليوم الرابع، وقيل هو لثلاث ليالٍ وأربعة أيام، وتسمى الإبل الروابع وصاحبها مربِّع. وأما الخمس فهو أن ترد الماء في اليوم الخامس. وإذا وردت الإبل الماء في اليوم العاشر فذلك هو العِشر، فإن زادت على ذلك فليست له تسمية ولكن يقال هي ترد عشراً ثم كذلك إلى العشرين، فيقال حينئذٍ ظمؤها عشران، فإذا جاوزت العشرين فهي جوازئ. وسنذكر طرفاً من بقية الأظماء لاحقاً.

وإذا شربت إبلهم ثم تباعدت عن الماء قيل شطنت أو شطرت، فإذا كانت ذاهبة للمرعى قيل مُصْدِرة، وإذا لم تكن ذاهبة للمرعى وانتشرت قيل منتشرة. فإذا صدرت وتباعدت عن الماء وانتشرت قالوا كشحت، فإن رجعت إلى الماء مرة أخرى قيل عفقت، وكل وارد عافق. وإذا مُنعت من الماء وهو موجود في الحوض فهو القَرْع، ويقال قرعت. فإذا منعها الراعي من الشرب قالوا حلأها، أي ذادها ومنعها وقرعها.

وإذا شربت الإبل ثم سارت بعد الورد ليلة أو أكثر قيل زهت، وتسمى تلك الليلة ليلة الغِبّ أو القمى، سواء أكانت تسير أم ترتع، والغب أيضاً ثاني أيام الصدر (الصدور). وإذا أطيلت أيام الإعزاب عن الماء فذلك هو الرفع، وإذا أورد الراعي إبله يسقيها بالعشي بعد صدور الرعاة سمي ذلك خلفة الورد. ولهم في السقيا طرق تختلف باختلاف أحوال الإبل ومرعاها؛ ومن ذلك التندية وهي في الإبل والخيل، وذلك إذا أوردوها حتى تشرب قليلاً ثم تعود لمرعاها ساعة ثم يردونها إلى الماء. واختصم حيان من العرب في موضع فقال بعض الحيين: مركز رماحنا ومخرج نسائنا وممرح بهمنا ومندّى خيلنا. والمندّى هو مرعى أهل القرية، يخرجون إليه في الربيع لترعى فيه دوابهم بحيث يكون قريباً من مورد المياه وكأنه يكون نديّاً لقربه من المورد؛ قال شاعرهم:

وقـرَّبـوا كـــل جُـمـالـيّ عـــضـه
قـريـبـة نـدوتُـه مـن مـحـمـضـه

والإرباغ عـندهم هو إرسـال الإبل على الماء كلما شاءت وردت بلا وقت، ويقال: تركت إبلهم هملاً مُرْبَغاً. والرِّفْه: أن تشـرب إبلـهم كـل يوم، وأهـلهـا مرفهون، أما إذا شربت ولم ترو فيقولون تغمـرت، أي شربت قلـيلاً ولم ترو. وتقول البـادية تفثفت. والتـعددية: إذا منعت من ماء لتشرب في ماء غيره.

فإذا شربت الإبل كل ما في الحوض قالوا أذاعت به، يعني ذهبت به. ويقال أيضاً انتضفت ما في الحوض وانتصفته. فإذا رويت قيل قمرت وقمحت وثأثأت ونصحت؛ قال الراجز:

هـذا مقـامي لـكِ حتـى تنـصحـي
ريـا وتجـتـازي بـــلاط الأبـطـــح

فإذا ذهب الري بها كل مذهب قالوا: قصعت صارتها، والصارة هي العطش يعني قضت عليه.

فإذا رويت تركت في المعطن وهو موضع بروكها حول الماء والجمع أعطان. ولا تكون الأعطان إلا مبارك الإبل حول الماء.

فإذا شـربت الناقـة دون الري قيل نشحت. وإذا سقـيت قليلاً قليلاً فهي المصرِّد. وتسمى الإبل الممتنعة عن الماء قاصـبة، وفي المـثل «رعـى فأقصـب» وقصب البعير الماء مَصّه. وقد تمتنع الإبل عن الماء وإن كـان صافياً فيـقال عافت الماء، والناقة عيوف والبعير عيوف.

وإذا تزاحمـت الإبل على الـشرب سمّوا ذلك الوعكة والأكّة والبكّة واللّكاك والتكاك، وأنشدوا:

مـا وجـدوا عـن الـتكـاك الـرَّوْس

الازدحام على الحوض (الأكة)

وإذا هابت الإبل الزحام وهي عطشى حامت حول الحوض ويسمونها الحُوَّم (حيام) فإذا منعها الزحام من الوصول وصارت تطوف حول الحوض سمّوا ذلك اللّوب. واتخذت الإبل كثيراً من أسمائها وصفاتها من الوِرْد والصَّدَر؛ فالنّاقة الدحوم هي التي تندفع نحو الحوض وتدحم الإبل حتى ترد الماء. وأهل البادية يفضلون الناقة الدحوم وتسمى أيضاً الضَّيزن، وهي بعكس العيوف.

والدِّخال هو أن يُدْخِل الساقي بعيراً قد شرب بين بعيرين لم يشربا. وقيل الدّخال والنَغَس أن يورد إبله الحوض، فإذا شَرِبتْ أخرج من كل بعيرين بعيراً قوياً وأدخل مكانه بعيراً ضعيفاً، تقول: سقاها دخالاً. والدِّخال من وجه آخر أن تسقي قَطيعاً من الإبل ثم يعطن، ثم تأتي بقطيع آخر، فيقوم واحد من القطيع الذي شرب فيدخل في القطيع الثاني على الحوض ليشرب، والدِّخال أيضاً أن يحملها على الحوض دفعةً واحدة (عراكاً)؛ وأنشد:

فأوردها العِراك، ولم يذدها
ولم يُشفق على نَغَص الدِّخال

والدَّفون هي الناقة التي تكون في وسط الإبل عند الورد. والرَّقوب الناقة التي لا تدنو إلى الحوض مع الزحام؛ وذلك لكرمها. والزحول الناقة التي ترد

الرّقوب

الحوض، فيضرب الذائد وجهها فتولي عجزها، ولا تزال تزحل حتى ترد الحوض، أي تتأخر. والسلوف الناقة التي تكون في الأوائل عند الورد، وتسمى العجلة وتتبعها القلاط. والعُرَيجاء هي التي تشرب يوماً غُدوة ويوماً عشية. والعُطُون أن تراح الناقة بعد شربها، ثم يُعرض عليها الماء ثانية، وأعطن القوم وعطنت إبلهم حول الماء.

وناقة مقامح، وإبل قِماح هي التي ترفع رأسها عن الحوض ولم تشرب، ويسمى شهرا كانون الأول (ديسمبر)

وكانون الثاني (يناير) شهرَيْ قُماح لأنه يكره فيهما شرب الماء إلا على ثُفْل، وقيل سُمّيا بذلك لأن الإبل تقامح عن الماء فلا تشربه. والقامح والمقامح هو الذي اشتد عطشه حتى فتر فتوراً شديداً. والناقة المسهاف هي السريعة العطش (ملهاب) ومثلها الملواح والمهياف والهافة، وأهاف القوم: عطشت إبلهم. والمِلحاح: الناقة التي لا تكاد تبرح الحوض (شرّابه).

يقول الحبردي: عندما يرد الرعاة موارد المياه فإنهم يحدون حداء خاصاً لزَعْب الماء بالدلو أو القلص ونزفه من الآبار، وصبّه في القرو أو المشرع وهو إناء يصنع من جلود الإبل يُصَب فيه الماء فتشرب منه، كما يصنع المشرع من الطين أو الحجارة، ويوصل بجدول صغير ينقل الماء إليه من مصب الماء في المقام أو الجابية التي تكون قرب البئر. ولهذا العمل حداء خاص، وهو يسمى في الشمال حداء

استخراج الماء لسقي الإبل قديماً

وفي نجد والجنوب عوبال، تطرب له الإبل، وتفرح بالماء بعد العطش، فيقولون في حدائهم:

وضحا سنامه يومي
مثل القمر بغيومي

وقولهم:

ياشيقر الذوايب
قلبي غدا لهايب

وقولهم:

يالابس الاحيمر
غضٍّ توّه ضويمر

وقولهم:

أم الهدوم السمرِ
بلتني على العمر

ويتم ترتيب سقي الإبل من الموارد في أوقات معينة بحيث يسقي كل منهم في وقته المحدد ويومه المعلوم (الوردة أو الوقعة)، وكثيراً ما تحدث المنازعات عند موارد المياه إذا وردت إبل في غير وقتها، أو إذا طرد أحد إبلاً عن الماء لعدم معرفته لها، أو إذا زاحمت إبلٌ أخرى إبله على الماء (٩ ١٤٠٩: ٦٩-٧٠).

وعن ورود الإبل وشربها قال عبدالله بن شريم الدوسري ولقبه الدندان:

عريضة الامتان تشرب كل مبنوقه
تركا نهل حوضها في يوم الارادي

ترزم إلى اوحت صبيب الدلـو مشلوقه
تفـرع وتذرع ولا لـلضـرب تنذادي
لا ورّدت هاربٍ مـا هيب مـلحوقـه
تـزله وتمـلـه لو ان حـوارها غـادي

والإبل لا تستطيب شرب المياه الكدرة الغليظة، ولكنها عندما ترد مياه الغدران والخباري تتدافع وتحركها بأرجلها فيتكدر لون الماء. وقد يـظن بعض الناس أنهـا بسبب ازدحامها عليه تقصد تكديره حتى تشربه، ولكن الحقيقة أنها ترشحه على أجسادها لترطبها من شدة الحرِّ. وأهـل الإبل يحبون الناقة التي تشرب الماء الكدر لأن الماء الصـافي قد لا يتوافر فـي كل الأوقات؛ تقول شاعرتهم:

شـرابـة المـا لـو تـزايـد حـفـيـره
غـبوقـة الخـطـار برصـا المـواخـير

ومن الحداء:

تـشـربـه حـرش الـعـطـين
تـشـربـه وان قـيـل طـين

وقيل: إن الإبل تحتاج إلى الماء في آخر فصل الربيع عندما تجف الأعشاب ويسمى نقضة الجزو. وذكر الشراري أنه إذا انتهى فصل الربيع ونضبـت الخباري والغدران والمستنقعات في البراري لشدة حر الشمس وسمومها، فإن الإبل تحتاج إلى المياه، فيتجه الرعاة بها إلى المناهل، فإذا وردت المناهل احتاجت إلى العزيب لرعي الفلاة من يابس العشب. والعزيب هو أن ترعى الإبل عدة أيـام بعيدة عن أهلها ومرعاهـا وهو المعزاب. والصدر هو ذهاب الإبل إلى المرعى وتسمى الليلة الأولى ليلة الصدر والليلة الثانية الغدر، وفي المثل «الورد غـارة والصدر انهزام» ويقولـون أيضاً عن الإبـل «وردن على غب» ويسمون الليلة الأولى للورد قرب، والقرب سير أول الليل لورود الغد.

وإذا وردت الإبل على الماء فالسقية (الشربه) الأولـى تسمى النهل والـثانية العـلل أو الحثه لأنّ الإبـل تشرب أول الورد ثم تـعطن ثم تسـقى وتندى من المرعى، وفـي المثل «ليل يـنهل». وإذا عزبت الإبل فـي المرعى ثلاث ليال أو خمس إلى سبع ليال ثم وردت يسمونه وتكون عدد لياليه مفردة، وما بعد السبع لا يسمى غبا (١٤١٢: ٣٠٦).

وفي لسـان العرب «الغب هو ورد يوم وظمء آخر، وقيل: هو ليوم وليلتين، وقيل: هو أن ترعى الإبل يوماً وترد من الغد». أما الربع فهو ليلتان، ويكره أن ترد الإبل غبا لأنه يكون في اشتداد الحر. وتكون حالة الإبل عند ذلك غير حسنة، ولا تسـتطيع الشـرب على طبـيعتهـا، فيصبح الشرب ضررا عليها؛ ومن الحداء قولهم:

أذهبتهن يا راعي
بالخمس والارباعي

والربع: أن ترعى الإبل بعد يوم الصدر يومين، فيوردونها في اليوم الثالث وهو المعتاد لسقي الإبل في الصيف، فإذا عطشت الإبل ورغبت في الورود على الماء قيل: استربعت الإبل، فيوردها الرعاة الماء؛ ومن الحداء قولهم:

وردن الله يحييهن
يوم الضما حاديهن

وعند ظهور سهيل يبدأ الرفع للإبل في أيام ورودها، أي زيادة أيام الرعي في معزابها لأن الجو يبدأ في البرودة وخاصة بالليل. وعند طلوع الشعرى يكون مدى احتمال الإبل للعطش قصيراً لشدة ما يكون فيها من حر. فالجمل لا يحن لشدة العطش الذي يصيبه، لذا فأكثر ما يكون شرب الإبل للماء في حر الشعرى وفي المثل «قران حادي على الما ترادي»، غير أن «قران حادي» بداية اشتهاء الإبل وغيرها للماء وليس طلوع الشعرى (١٤١٢: ٣٠٢-٣٠٧).

أما في الشعر العربي فقد ورد الكثير من ذكر شرب الإبل للماء مثل قول أبي تمام:

أما وحوضك مملوء فلا سقيت
خوامساً إن كفى إرسالها العزب

وقوله:

ياذائد الهيم الخوامس وفّها
عشرا وواف بها حياض محمد

وقوله:

سَقَتْ رفها وظاهرةً وغِبَّاً
أبا بشر أهاضيب الغمام

والهيم جمع هيماء وهي الناقة التي أصابها داء الهيام، وهو داء يصيب الإبل من شدة العطش. وقال عمر بن حوط بن سلمى:

كأنهمُ لوقع البيض بُزْلٌ
تغض الطرف واردة قماح

القامح من الإبل هو الذي اشتد عطشه حتى فتر فتورا شديدا كما أسلفنا. ويقول مزرد (يزيد بن ضرار بن حرملة):

تدقق أوراك لهن عرضنة
على ماء يمؤود عصا كل ذائد

يمؤود: ماء معروف قديما، والذائد: المانع. وهنا يذكر الشاعر بعض سلوك الإبل القوية عند ورود الماء. فإن أوراك هذه الإبل لقوتها ومتانتها وصلابتها تدقق العصي (تجعلها دقيقة من ضرب الذائد بها)، فعند ورودها الماء تتزاحم الإبل وتكب على الحياض؛ لذا فإن الذائد يدفعها ويبعدها عنه باستخدام عصاه. ويعني الشاعر أن هذه الإبل رعت، وأكلت الحمض فعطشت؛ لذلك فهي

شديدة الحرص على الشرب وهذا ما يوضحه قوله من قصيدة أخرى:

أكلن حمضا فالوجوه شيب
شربن حتى نزح القليب

ويقول ذو الرمة:

على ضُمَّرٍ هيم فراو وعائف
ونائل شيء سيّىء الشرب قاصبه

ويقصد الشاعر إن من الإبل ما روي ومنها ما هو عائف لا يريد الماء، ومنها ما يشرب الماء قليلا، وهذه هي وجوه (حالات) شرب الإبل للماء. ومعنى قصب شربه أي قطعه، والعيوف من الإبل الذي يشم الماء فيتركه وهو عطشان. ويصف الأخطل شرب ناقته فيقول:

ترد على الظمء الطويل نطافها
إذا شوت الجوزاء وُرْقَ الجنادب

نطافها: ما بقي في جوفها من الماء القليل. يعني إنها تردُّ فيما بين ورد وآخر ما بقي من ماء في حوضها وقت الهاجرة (عز الظهيرة) والتي تكاد من حرارتها أن تحرق الجنادب الوُرْق (الرمادية اللون) وتحيل لونها إلى سواد. ويقول الحطيئة:

وألقت سباطا راشفات كأنها
من السبت أهدام دقاق خصورها

يقول إن هذه الناقة ألقت على الأرض بمشافرها الطويلة اللينة ترشف بها الماء كأنها نعال السبت (جلود البقر تدبغ بالقرظ ويتخذ منها نعال). ويقول ذو الرمة أيضا:

لأخفافها بالليل وقع كأنه
على البيد ترشاف الظماء السوابع

والسوابع كما تقدم هي الإبل التي لها سبعة أيام لم ترد الماء، فهي عطاش. شبّه الشاعر صوت أخفاف الجمال على الأرض بصوت رشفات الماء لإبل لها سبعة أيام عطاش. والرشف هو شرب الإبل بأطراف المشافر.

ومن أمثال العرب التي تدور حول السقيا قولهم «آخرها أقلها شربا» يعني أن المتأخر عن الورود ربما جاء وقد انتهى صفو الماء. وقولهم «ضرب أخماساً لأسداس» والخمس والسدس من أظماء الإبل، والأصل في هذا المثل أن الرجل إذا أراد سفرا بعيدا عوّد إبله أن تشرب خمسا ثم سدسا، حتى إذا استمرت في السير صبرت عن الماء. ويُضرب المثل لمن يسعى في المكر، أي رقَّى إبله من الخِمْس إلى السِدسْ.

والمثل السابق يوضح لنا كيف أن العرب كانت تتعامل مع إبلها وتأخذها بالتغيير التدريجي وليس التغيير المفاجىء. ومن أمثال العرب أيضا «كانوا مخلّين فلاقوا حمضا» وذلك أن الإبل تكون في الخلة وهو مرتع حلو (نباتاته غير مرة) فتأجمه أي تكرهه، فتذهب إلى مكان كثير

الحمض، فإذا رتعت فيه أعطشها حتى تترك المرتع من الظمأ. وقولهم «رعى فأقصب» تقول العرب: قصب البعير يقصب، إذا امتنع عن الشرب، وأقصب الراعي إذا فعلت إبله ذلك. كما قالوا أيضا «أساء رعيا فسقى» أصله أن يسيء الراعي رعي الإبل نهاره حتى إذا أراد أن يريحها (يرجعها) إلى أهلها كره أن يظهر لهم سوء عمله، فيسقيها الماء لتمتلىء منه أجوافها. وتقول العرب في أمثالها أيضا «شربت الإبل حتى تحببت» أي امتلأت. وتقول أيضا «النَّسء خير من خير إمارات الربغ» والنسء: بدء السمن، والربغ: أن ترد الإبل كلما شاءت. ومن أمثالهم أيضا «أهون السقي التشريع». والتشريع: هو أن ترد الإبل ماء لا يحتاج إلى متحه (إخراجه من البئر) بل تشرع فيه الإبل شروعاً.

ومنها أيضاً «يدق دق الإبل الخامسة» والخمس عند العرب هو أشد الإظماء لأنه في القيظ (شدة حرارة الصيف)، ولا تصبر الإبل في القيظ أكثر من الخمس، فإذا خرج القيظ، وطلع سهيل وبرد الجو قل ظمأ الإبل. وإذا أوردت الإبل في القيظ خمسا اشتد شربها.

وأدوات سقيا الإبل ثلاثة أنواع؛ ما يستخرج به الماء من الآبار والعدود (مفردها عِدْ) كالدلاء ونحوها، وما

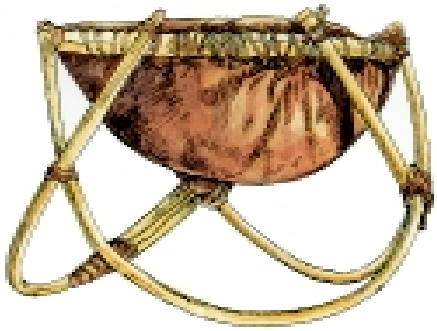

حوض السُقيا

يحمل فيه الماء بعد استخراجه إلى أماكن الحاجة إليه كالروايا، وما تسقى فيه الإبل عند البئر أو في حظائرها أو معاطنها كالأحواض.

أما الدَّلو فهو وعاء دائري أو أسطواني مصنوع من جلد سميك، تكون قاعدته ذات قطرٍ أصغر من فوهته، ولها أطراف معقوفة ومخروزة بشكل متين، بحيث

الشرب من الحوض

يُثبت عليها عارضتان خشبيتان متقاطعتان تسمى واحـدتهما العرقاة، يـربط بهما الحبل الذي يُـخرج به الدلو من البئـر. وأكبر الدلاء الغرب، ومن حداء الموارد:

الـغـرب طـيـر يـشـنـبـه
مـن واحـد تـذنـبـه

وقولهم:

الـغـرب ويـش الـلـي بـه
يـجـيـبـنـي واجـيـبـه

ومن أمثال العـرب «الدلو تأتي في الغرب المزله»، يضرب في التخويف من وقوع الشر.

ومن الدّلاء القَلَص، وجمعُه قِلْصَان، وهو نوع من الدّلاء المصنوعة من الأدم، غير أنه يختلف بأنه لا عراقي له، وأنّ له عروتين طويلتين مجدولتين من سيور أدم، وحافته مجدولة بالسّيـور جدلاً جيداً. ويستعمل كالدّلو لرفع الماء من البئر. وقد يستعمله المسافرون لأغراض أخرى، فيحملون فيه المركى الـذي يصنعون فيـه الطعام، وتمر المضَحّى، وسحلة الشراب، وغير ذلك من الأغراض. وهو مـن أدوات السّفر، ولا يستعمل في ركايا البيوت ولا في مساقـي المساجد؛ قال هُويشل بن عبدالله:

واجذ قـلبـي عليـهم جـذ الاطنابِ
أو جذ حبل القـلص من كف جذّابه

وقال عوض بن جبر الجياشي الشلوي:

عطـها القـلص مـن جمة الجـروليه
وونـس لـها فـي حـس طـير طـار

وقال الآخر:

فاطـري تضلع ولا ادري وش بـلاها
ما عـليـها الا الـقلـص والزمـزميـه

وقال حنيف بن سعيدان:

أبـي المعـوضـه يوم مـاتت ذلـولـي
لْـيا عـلّـقـوا قلـصـانـهم بـالمـدال

وقال شـليويـح العطـاوي الروقي العتيبي:

لا والله الا تـل قـلـبـي بـشـبّـاك
يتـل به تـل القلـص من عفيـف

واستـحدثـوا الطـربال، وهـو من إطارات (لساتك) السيـارات، أي الجزء الداخلي من الإطار الذي يُنفخ بالهواء، واستعمل لدى البادية في الفترة المتأخرة مع ظهور السيارات وذلك بقطع اللستك وتحويله من شكل دائري إلى شكل هلالي وخياطة أحد طرفيه وملئه بالماء ثم ربط الطرف الآخـر بحبل بـعد ثني أطـرافه ويحمل على المطايا سواء للشرب أو سقيا بقية الإبل التي لم ترد الماء. أو يحملونه في الروايا، وهي من جلود الإبل، تُصنع للسقي.

أما حوض البِلْ فإنه يُتخذ من جلود الإبل، يـركَّب عـلى عـصيّ مـحنـية ويستخدم لسقيها الماء.